نظام الإسلام فى بناء الأسرة

للأستاذ محمود ضيغم واعظ القاهرة

يحرص كل شعب كريم على أن تكون حياته مرتكزة على أمتن الدعائم، وأقوى الأسس وأفضل المبادئ، وأشرف المقاصد والغايات، وأن يعيش موفور الكرامة، غالى المنزلة، عزيز الجانب، يرفرف عليه علم السيادة والقوة، وتزدهر فيه العلوم والمعارف، وتتوطد فيه أركان العمران، وتسمو فيه مكانة الفضائل النفسية والتربية الدينية، وينتشر العدل بين ربوعه ويتم التعاون بين أفراده. وليس من سبيل الى تحقيق تلك الغايات النبيلة، والحياة الكريمة والاهداف السامية إلا باصلاح الأسرة وحياطتها بسياج من التربية الدينية الفاضلة وتدعيمها بحصانة قوية من الخلق الكريم، وصيانتها من تسرب عوامل الضعف والانحلال اليها، فالأسرة نواة الأمة والمجتمع ومنزلتها من الأمة منزلة القلب من الجسد. فان صلحت الأسرة قويت الأمة وسعدت، وإن فسدت تهدم صدر الأمة وأسرع اليها الفساد وآل أمرها الى ذل وانحطاط وزوال.

من أجل ذلك كانت عناية الاسلام باصلاح الأسرة — ماديا وأدبيا — عناية عظيمة لا أتجاوز الحقيقة إذا قلت أنها فى الصدارة من مقاصده الاجتماعية، وأغراضه الاصلاحية، ومبادئه العمرانية، يتجلى ذلك فى حرصه الشريف على أن يختار الرجل شريكة حياته وراعية منزله، وسيدة بيته، ومربية أولاده مثلا طيبا فى جلال الخلق وقوة الدين، وأنموذجا رفيعا للعفة والطهارة، والتربية الصالحة. فهاهى ذى السنة النبوية الكريمة تضع لنا أرق التعاليم، وأسمى الارشادات بإصلاح الأسرة وبنائها على أحسن النظم وأقواها. يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاثا لنا على مراعاة الدين والخلق فى الزوجة (... فاظفر بذات الدين تربت يداك) ويأمرنا صلى الله عليه وسلم أن نختار بيوتا كريمة نصاهرها تكون خالية من الأمراض الخلقية والأمراض الجسمانية "تزوجوا فى الحجر الصالح فان العرق دساس" ويحذرنا من الاندفاع وراء جمال نشأ فى بيئة فاسدة وأسرة دنيئة "إياكم وخضراء الدمن قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء".

ما أسعد الأسرة التى تبنى على حسن اختيار امرأة فاضلة كاملة، وما أعظم نعمة الرجل بها. حيث يكون دينها هو الحارس عليها، وخلقها الفاضل هو المسيطر على تصرفاتها، إنها تراقب ربها فى جمالها وحسبها ونسبها؛ وتراقبه فى مال زوجها وفى تربية أولادها وفى جميع شؤون بيت الزوجية وتجعل البيت منبتا للفضائل ومدرسة للسعادة والهناء. قال بعض علماء الاجتماع (ان أحقر المنازل إذا تولت رياسته امرأة مدبرة باشة. كان ملؤه الراحة والهناء والسعادة، وكان فيه أشرف العواصف العائلية، كان عزيزا لدى الرجل لما يستلزمه من

دواعي السرور ، كان ملاذا للقلب وملجأ من عواصف الحياة ، كان خير مكان للراحة من عناء الأشغال ، ومتاعب الحياة كان في الشدة مسليا ، وفي الرخاء فخرا ، وفي كل حال نعيما فالمنزل الصالح إذن خير معاهد التربية لا للشاب وحده بل للكهل أيضا ، وفيه يتعلم الشاب والكهل البشاشة والصبر وضبط النفس . وتدرك روح الحياة ومعنى الواجب .

وكما حرص الاسلام على حسن اختيار راعية بيت الزوجية حرص على أن يكون الزواج مؤسسا على الحسب الطاهر المتبادل بين الزوجين ، والرغبة الصادقة في هذا الارتباط المقدس لتتوافر مقاصد الزواج السامية من دوام الألفة والرحمة والمودة وتبادل العواطف الكريمة واطمئنان كل واحد منهما للآخر وسكونه اليه وثقته به " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة " .

من أجل ذلك أباح الإسلام للرجل أن يرى خطيبته وينظر اليها "إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها إذا كان انما ينظر اليها لخطبتها " وأعطى المرأة الحرية الكاملة في اختيار زوجها وشريك حياتها ورضاها به ما لم يكن هذا الاختيار سيئا تعير به أسرتها . وحرم على الآباء والأولياء الاستبداد بالبنات وإكراههن على التزوج بمن لم يرغبن فيه . محاربة للعادات الجاهلية الأولى وحرصا على تبادل المحبة والألفة بين الزوجين . وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم " الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن في نفسها " وقد روى أن رجلا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم زوج ابنته الثيب فكرهت ذلك فأتت الرسول فأبطل زواجها وروى أيضا أن فتاة جاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أبي زوجني من أخيه ليرفع بي خسيسته فجعل النبي الأمر اليها . فقالت تلك الفتاة قد أجزت ما صنع أبي . ولكن أردت أن أعلم النساء أنه ليس الى الآباء من شيء . تعني أنه ليس لهم اكراههن على التزوج بمن لا يرضينه .

ولم يفت الاسلام أن يحث الرجل على حسن معاملة زوجته ومعاشرتها في ظلال التقدير والوفاء والاحترام واعطائها كل مالها من حقوق وواجبات . وفي ذلك يقول الله تعالى : " وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا "

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم " خيركم خيركم للنساء " ، " ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم " وتأكيدا لهذا الحق أباح الاسلام للمرأة أن تطلب فراقها من زوجها إذا أساء اليها في المعاملة أو سلبها حقا من حقوقها وأباح لها أيضا ان تملي في عقد زواجها ما تشاء من الحقوق التي تراها ضمانا لحاضرها ومستقبلها . وفي الوقت نفسه ألزمها بواجبات تؤديها نحو زوجها وأولادها وبيته " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف " .

هذه تعاليم الاسلام في بناء الأسرة وتأسيس الحياة الزوجية على اسمى المبادئ إذا أخذ بها عاشت الأسر والجماعات والأمم في ظلال السعادة ، وتحت لواء الألفة والهناء .

ولعل في هذا الهدى الاسلامي الحكيم تنبيها وإرشادا لاولئك الشباب الذين يجرون وراء المال حسب غاضين النظر عن الناحية الخلقية يتلمسون من المادة وحدها السعادة الزوجية

والهناءة المغرية ولكنهم لم يظفروا بشيء من ذلك على أن الحوادث أرشدتهم أيضا الى أن الزواج الذى يؤسس على المادة وحدها سرعان ما تقصف العواصف ، ويتهدم بنيانه ، وتتداعى أركانه ويكون مصدر شقاء وبلاء على الاسر والجماعات والأمم .

وكما عنى الاسلام باللبنة الأولى فى الأسرة وأول مدرسة فى المجتمع — سيدة البيت وراعيته — عنى بتربية الأولاد الذين هم رجال المستقبل وموضع رجاء الأمة ومعقد آمالها وقبلة أنظارها ، عدة الزمان فأوجب على الوالدين رعاية الأولاد رعاية تامة وكفالتهم كفالة رشيدة ، وتربيتهم تربية فاضلة . وتنشئتهم تنشئة كريمة حتى يشبوا على طراز عال من الصحة والعقل والخلق الكريم . وفى ذلك سعادتهم وسعادة المجتمع الذين سيعيشون فيه وأن أمثل الطرق وأقومها فى تربية الأولاد وتهذيبهم أن يكون الوالدان قدوة حسنة لهؤلاء الأولاد . وأن يكون كل ما فى المنزل حسنا فلا يفتح الأولاد عيونهم على قبيح . ولا يسمعوا فحشا من القول ولا يشاهدوا أفعالا مرذولة ولا تصرفات منكرة . يقول الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا " ويقول " وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها " ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم " ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن " ويقول " أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم " ويضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم المثل العليا فى تربية الأولاد عمليا . وتنشئتهم تنشئة فاضلة كريمة . فقد حدثتنا السنة النبوية أن الحسن رضى الله عنه كان صبيا وأخذ تمرة من تمر الصدقة . فجعلها فى فيه فقال له الرسول " ارم بها أما علمت أنها لا تحل لنا الصدقة " بهذا التعليم النبوى الكريم نشأ الحسن على معالى الأمور وسمو النفس . وعلو الهمة . والكرم والسخاء . وهذا عمر بن أبى سلمه رضى الله عنهما يتحدث عن تربية الرسول له وارشاده الى آداب الأكل ، وهو غلام صغير . يقول فى ذلك : كنت غلاما فى حجر الرسول صلى الله عليه وسلم . وكانت يدى تطيش فى الصحفة فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك " فما زالت تلك طعمتى بعد . بتلك التعاليم الاسلامية والارشادات النبوية أخذ المسلمون الأولون أنفسهم بها ، فخرجوا للمجتمع شبابا كان مضرب الأمثال فى الأدب الرفيع ، والخلق الفاضل ، والرجولة الكاملة . فهذا عمر الفاروق رضى الله عنه ، يضع المنهج القويم للتربية البدنية والثقافية . ويبث الفروسية والشجاعة فى نفوس الأولاد ، فيقول " علموا أولادكم السباحة والرماية وخذوهم بقرض الشعر . ومروهم فيثبوا على الخيل وثبا " . وهذا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يضع أنموذجا عاليا للتربية الدينية والبدنية والعسكرية ، فيرسل كتابا مطولا الى مؤدب أولاده يقول فيه " . . . . وليفتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت فى قراءته ، فاذا فرغ تناول قوسه ونبله وخرج الى الغرض حافيا ، فرمى سبعة أرشاق . . . . " . على أن الاسلام يقدر اختلاف الازمنة وتنوع مقتضياتها فى التربية والتوجيه الى ميادين الحياة والاعداد للمستقبل ، فما يناسب زمنا من التربية والتوجيه قد لا يلائم زمنا آخر . لذلك يقول بعض كبار الصحابة : خلقوا أولادكم بغير اخلاقكم ، فقد خلقوا لزمان غير زمانكم ، هذه ارشادات الاسلام فى تربية الأولاد وتهيئتهم جسما ونفسا وخلقا حتى يقوموا بوظائفهم فى الحياة خير قيام ، ويسيروا فيها بأقدام ثابتة ، وخطوات موفقة ناجحة .

بقيت ناحية من نواحي سعادة الأسرة وهنأتها ، تلك هي الناحية المادية التي لها أعظم الأثر في راحة الأسر وطمأنينتها في حاضرها ومستقبلها ، تلك الناحية عني الاسلام بها عناية عظيمة فأوجب على الوالد أن يعمل على إسعاد أهله وأولاده . وأن يحيط مستقبلهم بضمان مالي — إن استطاع — كما يحيطه بضمان خلق ، حتى لا يكونوا عالة على المجتمع ، وعبئا ثقيلا يعطل من سيره . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم حاثا على الانفاق على الأهل والأولاد والخدم " . . . . وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة " ويقول " كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت " ويقول حاثا الآباء على مراعاة مستقبل أولادهم " . . . . . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " وبجانب ذلك كله أراد الاسلام أن يعيش الأولاد مستظلين بلواء الألفة والمحبة والتضامن ، وأن يمتنع الوالد بر أولاده جميعا وتحقيقا لتلك الغاية السامية أوجب الاسلام التسوية بين الاولاد في العطية ، وحرم إيثار بعضهم على البعض الآخر ، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أني نحلت ابني هذا غلاما كان لي : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا بشير ألك ولد سوى هذا" فقال . نعم . قال "قل اللهم وهبت له مثل هذا" قال . لا . قال "لا تشهدني على جور ، أيسرك أن يكونوا اليك في البر سواء" قال . بلى . قال " فلا اذا " .

هذا هو الاسلام يتولى تنظيم الأسر والبيوت . ويشرف على تكوينها وتأسيسها ، ويضع لنا نظام حاضرها ومستقبلها ، فلو أننا استرشدنا بتلك الارشادات ، واهتدينا بتلك التعاليم ، وسرنا على ضوئها ، لكان البيت الاسلامي الآن كالبيت الاسلامي الأول ، نورا وهدى ، وبيئة صالحة ، وخلالا كريمة ، ومدرسة تخرج لنا الكثير من القواد المصلحين ، والعلماء المخلصين والحكام العادلين الرحماء ، والعمال الأوفياء ، والصناع الأمناء ، والجنود البواسل والزوجات المخلصات الفاضلات ، والشبان الأقوياء جسما وخلقا وروحا ، وغير أولئك ممن يسعد بهم المجتمع ويعتز بهم الوطن ، لو أن كل بيت من البيوت ، وكل أسرة من الأسر اتخذت من الشريعة الاسلامية ضياء ومن هدى النبوة نورا ، ومن القرآن دستورا ، إذن لسعدت الأمة ، وبلغت الذروة العليا في العلم والخلق والصحة ، والعمران والحضارة ، والقوة والسيادة .

ذلك ما يريده كل محب لدينه ، غيور على بلاده ووطنه ، حريص على سعادة ابنه ، وذلك ما نرجو أن يتحقق على يد وزارة الشؤون الاجتماعية ، التي نتمنى لها النجاح والتوفيق والسداد في أداء مهمتها .

محمود ضيغم

الواعظ بالقاهرة